٢ ـ القرآن الكريم
فى كتاب النثر الفنى
للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

ألف زكى مبارك كتابه النثر الفنى كأنما أراد أن يزلزل به الزمان فخرج فيه على الإجماع فى أمر القرآن

وعلماء العربية — والأئمة المجتهدون منهم — مجمعون طوال تلك القرون على أن القرآن معجز . وأول شرائط الإعجاز التنزه عن كل ما يمكن أن يعد عيباً فى الكلام ، وإلا لأمكن لبليغ أن يستدرك على القرآن . من أجل ذلك لم يؤثر عن عالم من علماء العربية الذين تعرضوا لنقد الكلام الفصيح أن ذكر شيئاً يمكن أن يعد عيباً حين تكلم عن القرآن ؛ لكنك حين تأخذ فى أول فصل من فصول كتاب زكى مبارك ، فصل نقد النثر الفنى ، تجده فى أول صفحة منه يعيب على علماء العربية أنهم حين تعرضوا لنقد القرآن لم يذكروا إلا المحاسن ، فنقدهم من أجل ذلك ليس فى رأيه بالنقد الصحيح ! اقرأ له إن شئت قوله من صفحة ١٧ :

« وليس فى اللغة العربية كتاب منثور شغل به النقاد غير القرآن . على أن شغل النقاد لم يكن عملاً فنياً بالمعنى الصحيح للنقد الأدبى ؛ فقد كان مفروضاً فى كل من يكتب عن القرآن أن يظهر عبقريته هو فى إظهار ما خفى من أسرار ذلك الكتاب المجيد ، وليس هذا من النقد فى شىء . وإنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبى موقف الممتحن للمحاسن والعيوب . من أجل ذلك وسم أكثر ما كتب عن القرآن باسم الإعجاز لأن النقاد اطمأنوا إلى أن القرآن هو المثل الأعلى الذى تقف عنده حدود الطبيعة الإنسانية فى البلاغة والبيان »

فما رأيك فى مذهب صاحب هذا الكلام فى القرآن ؟ أتراه يطمئن إلى ما اطمأن إليه النقاد ، أم تراه مخالفاً لهم يرى فى القرآن عيوباً لم يروها ولا يمكن أن يراها بصير منصف لأنها غير موجودة فى القرآن ، فعابهم بأنهم لم يذكروا إلا المحاسن ، وأن نقدهم من أجل ذلك غير فنى ولا صحيح ؟

وعبارته تلك فيها أكثر من مأخذ من ناحية الدقة ومن ناحية الخروج . فهو غير دقيق فى حكاية مذهب النقاد فى تقدير بلاغة القرآن ، فإن مذهبهم أعلى كثيراً مما نسب إليهم وحكى عنهم ، لأنهم يجعلون القرآن فوق طاقة البشر ووراء حدود الطبيعة الإنسانية فى البلاغة والبيان ، وهو يجعله فى مذهبهم عند حدود الطبيعة الإنسانية ، وما كان عند الحدود أمكن بلوغه وإن احتاجت الطبيعة الإنسانية إلى أقصى غايتها وأقصى مداها كى تبلغه . وهو معنى لم يقصد إليه انتقاد طبعاً ، كما لم يقصد زكى مبارك بنسبته إليهم أن يظلمهم ، وإنما هى قلة دقة منه فى التعبير عنهم ، فالقرآن عندهم هو المثل الأعلى الذى تقف دونه — لا عنده — حدود الطبيعة الإنسانية فى البلاغة والبيان

كذلك هو غير دقيق فى قوله إن أكثر ما كتب عن القرآن وسم باسم الإعجاز ، ولو قال باسم إعجاز القرآن لأصاب الدقة والصحة التاريخية معاً ، لأن إعجاز القرآن عندهم من الثابت المسلم ، فمن المعقول إذا كتبوا فى بلاغة القرآن أن يبينوا ذلك الاعجاز ودلائله ، وأن يطلقوا على ما يؤلفون فى ذلك فى الكثير الغالب اسم إعجاز القرآن

أما خروجه فى تلك العبارة على علماء العربية وعلى الإجماع فكما رأيت . فالنقد عنده أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبى موقف الممتحن للمحاسن والعيوب . وهذا صحيح ولكن فى نقد كلام الناس لا كلام الله . لو كان القرآن كلام بشر لكان أثراً أدبياً لصاحبه ، ولجاز أن يكون بإزاء المحاسن عيوب يبحث عنها النقد . أما وهو من كلام خالق البشر أنزله سبحانه معجزة لرسوله وتحدى به كل شاك فيه من العرب وغير العرب ، بل تحدى به الجن والإنس على اختلاف العصور ، فكيف يمكن أن يقف الناقد أمامه إلا كما يقف العالم أمام آية من آيات الله فى الأرض أو فى السماء ؟

إن العلم حين يقترب من آيات الله فى الخلق يقترب اقتراب المنقب عن سر مودع ، لا الباحث عن عيب . يقترب اقتراب العابد لا اقتراب الناقد ، فإذا وقف على ما يعقل ويفهم عد ذلك

من التوفيق واتخذه نبراساً ودليا… بحثه عن سر ما لا يفهم ، ولا يخطر له مطلقاً أن يحسن الظن بنفسه ويسىء الظن بالفطرة إذا تعارض رأى له مع شىء من الواقع فى الفطرة ، فهو يأخذ الواقع كما يجده ، وينبذ من الرأى ما لا يتفق معه وإن عز . ومن هنا ينتقل العلم من ظفر إلى ظفر ويكشف عن سر بعد سر ويزداد قوة على قوة . ولو فعل غير ذلك واقترب من الفطرة يفترض عيوباً فيها يتطلبها لوقف ولقف ولضل ، ولأصبح فصلاً من فصول الأدب الذى يريد الدكتور ز… مبارك . والفطرة هي الفطرة فى عالم المادة أو فى عالم الروح ، وفاطرها هو هو سبحانه ، يتقرب إليه عباده بدراسة آياته ، أينما وكيفما تكون ، بروح الخاشع الملتمس الهدى المبتغى الوصول . فإذا كانت حكمة الله ورحمته قد اقتضت أن يجعل للانسان بإزاء الآيات التى لا نهاية لها فى عالم المادة والعلم آية واحدة عظمى فى عالم الروح والأدب ، ألا وهى كتابه المنزل على خاتم رسله وصفوتهم ، فيكون من المعقول أن يقترب الإنسان من آية الله هذه بغير الروح التى يقترب بها من آيات الله تلك ، وينظر فى كلمات الله المودعة فى قرآنه بغير روح الخشوع والإجلال وطلب الهدى التى ينظر بها فى كلمات الله المودعة فى خلقه؟

إن القرآن كلام الله كما أن النبات والحيوان والكواكب من كلماته ، وإن اختلف فى كلٍ الخطاب . بكلٍّ خاطب الله عباده ، وعن كلٍّ أعجز الله خلقه أن يأتوا بمثله ، بعضه أو كله ، ليكون عجزهم دليلاً لهم وحجة عليهم ، وعن كل عجزوا . أفيدرس الناس آيات الله فى النبات والحيوان والكواكب لا يتوقعون عيباً ولا يرون إلا كمالاً يتفاقم ويزداد فلا يجد زكى مبارك فى ذلك ما يلمزهم به ، ولا يعد علمهم لذلك علماً غير صحيح ، حتى إذا درسوا آيات الله فى القرآن العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يتوقعوا نقصاً ولم يروا عيباً ولم يجدوا إلا كمالاً وجلالاً وإعجازاً ، لمزهم وهمزهم وقال لم يذكروا إلا المحاسن كأن هناك بجنب المحاسن عيوباً كان عليهم أن يذكروها وإلا كانوا غير نقاد ؟

إن العهد الذى كان ينظر فيه فى القرآن نظر تطلب للعيوب قد مر بالفعل ، مر إلى غير رجعة . والذين نظروا فى القرآن تلك النظرة التى يدعو إليها الآن الدكتور زكى مبارك كانوا أقدر من منه ألف مرة على إدراك عيب لو وجدوه ، وأبصر بنقد الكلام ، لأنهم كانوا أهل العربية الفصحى رضعوها ودرجوا عليها ونشئوا فيها وأحكموها شباناً وشيباً رجالاً ونساء ، فكانوا يصدرون فيها عن بصيرة وفطرة ، كما لا يمكن أن يصدر الدكتور زكى مبارك أو يبصر مهما تكلف واجتهد واحتفل . وما منهم من أحد إلا ونظر — قبل أن يسلم — فى ما بلغه من القرآن نظرة ناقد خبير فاحص يلتمس الوهن والعيب ، فلما لم يجد عيباً ولم ير إلا كمالا باهراً وإعجازاً ظاهراً سلّم وأسلم . فكل عربى كان مشركاً ثم أسلم شاهد صدق على أن القرآن فوق القوى والقدر ، مبرأ منزه فى جملته وتفصيله عن النقص والعيب . فأى كتاب أو أى كلام لقى من النقد ما لقى القرآن ، وعُرض من أهل العلم والفن على مثل من عرض عليهم القرآن كثرة ومقدرة وخبرة ، وفاز ببعض ما فاز به القرآن من التسليم له والإيمان به والجهاد بين يديه ؟ أفيقال بعد ذلك إذا أقبل علماء العربية عليه يتطلبون أسرار كماله كما يتطلب علماء الفطرة أسرارها ، أن فنهم لم يكن بالفن ونقدهم لم يكن بالنقد ، لأن كلا منهم كان يظهر عبقريته فى إظهار ما خفى من أسرار ذلك الكتاب الجيد ؟

أظن النص الذى قدمته من صدر أول فصل فى النثر الفنى كافياً فى إثبات دعواى على صاحب النثر الفنى أنه يدعو إلى نقد القرآن . وليس هو بالنص الواحد الذى فى الكتاب فى هذا الباب ؛ فهناك فى الجزء الثانى فى ترجمة القاضى أبى بكر الباقلانى نصوص لا تقل دلالة عن النص السابق . ففى صدر ذلك الفصل يقول مؤلف النثر الفنى (ص ٦٩) :

« إن الباقلانى ومعاصريه رأوا أن فى الإمكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن وإن لم يتحد الموضوع » وهم لم يفعلوا ولم يوازنوا بين قصيدة وسورة ، لأنهم كانوا أبصر بالنقد وأرعى لحرمة القرآن من هذا ، ولكنهم تعرضوا للشعر ونقدوا بعض عيون قصائده ، مبينين عيوبها غير مغفلين محاسنها ، كما فعل القاضى رحمه الله ، وكما ينبغى أن يفعل الناقد البصير حين يتعرض لما فيه محاسن وعيوب . أما القرآن فقد كانوا يعلمون عن بصيرة ويقين أن محاسنه فوق أن يحيط بها علم عالم أو نقد ناقد ، فكانوا يكتفون بالبحث العام فى وجوه الإعجاز موضحين آراءهم بالأمثلة يضربونها من بعض الآيات وبعض السور من غير قصد إلى مقارنة أو موازنة حيث الفرق هائل والبون شاسع بعيد

ثم يقول صاحب النثر الفنى فى نقد الباقلانى وأمثاله :